obeikandi.com

مواصلة الخدمة رغم كل العراقيل

سـؤال: نعيش اليـومَ حالةَ بَلبَلَةٍ خطيرة حقًّا؛ إذ شُـوّهت الصورة الحقيقيّـة لأنـاسٍ بشـنِّ حملات تشـويه وإسـاءة كاذبـة وبمجموعة مـن الظنـون والأوهـام؛ فكيـف يجب أن تكـون فلسـفتنا إزاء ذلك؟ وما مفهوم العمل والنشاط في ظلِّ هذه الظروف؟

الجواب: بدايةً يجب على من يخدمون في سبيل الحقِّ أن يقبلوا بحقيقـةٍ تتجلـى ظاهرة فـي حاضرِنا اليـوم كما تجلَّت فـي الماضي القريب والبعيد، وهي أنَّ من يحملون صفات ذميمة كالحقد والكره والحسد سـوف يعتبرون فئات المجتمع المخالفة لهم فكريًّا أعداءً، فيهاجمونها في كل مكانٍ، ويرتكبون تجاهها ما لا يُتوقع من شناعات ودناءات من أجل حماية مصالحهم الشـخصية؛ وذلك بسـبب جنون العظمـة الـذي أصابهم، غير أنَّه ينبغي للأرواح التي نذرت نفسـها لله أن تلجـأ إليـه سبحانه وتعالى دائمًا في تَسـلِيمٍ وتوكُّلٍ، وأن تواصل كلَّ أنشـطتها معتمدة عليه تعالى، وأن تُبْقِي عينَها على "النور الخالد" ﷺ، وتُواصلَ المسـير والتقـدّم في الطريق الـذي تراه حقًّا بضمير ووجدان فسـيح يحتضن الإنسانية جمعاء برغم كلِّ المعوقات والشرور.

والحقيقة أنكم ربما تجدون وأنتم تسيرون في هذا الطريق جفاءً ممن تأملون منهم الوفاءَ، وقد يتخلّى عنكم من سِرتُم سويًّا وتقاسمتم معهم أشياء كثيرة حتى اليوم، بل وربما يطعنُكم في ظهوركم أشخاصٌ لا تتوقَّعون منهم فعلَ ذلك أبدًا، غير أنَّه ينبغي لكم أن تفتحوا أبوابًا وآفاقًا جديدة في وجدانكم، وتُواصلوا السير في الطريق الحقِّ الذي أنتم عليه دون سأمٍ ولا مللٍ ولا اهتمامٍ بمثل تلك السلبيات، وعليكم أن تعملوا على أن تزيدوا من سعة روحكم وتوسِّعوا أفق وجدانكم باستخدام مقوِّمات جديدة.

مرشدون لا يَخدعون

ثمة حاجةٌ إلى مرشدين وهداة يَبُثُّون الثقة دائمًا فيمن حولهم ولا يخدعونهم ولا يُضِلُّونهم لا سيما في عصرٍ سادت فيه الفوضى، وراجت فيه فتنٌ مرعبة وعظيمة أشارت إليها كتبُ الحديث في أبواب "الفتن والملاحم"، وتوالت فيه أحداثُ الهرج والمرج، وعُدَّ الخداع مهارةً وفنًّا، فعليكم أن تُعلِّموا الإنسانية معنى الثقة والأمن، وذلك بأن لا تخدعوا أحدًا لا بالقول ولا بالفعل ولا بالمنظر، ويجب ألّا يجد الآخرون في نبض قلوبكم ودقّاتها ما يُوحِي بالخداع والتضليل وإن ظلوا يراقبونكم ولو حتى خمسين سنة.

والحقيقةُ أنكم قد تعانون بعضَ الشيء في تقديم أنفسِكم للآخرين وتعريفِهم بكم بشكلٍ صحيح؛ إذ إن الكثيرين في يومنا هذا يطلبون الدنيا ونعيمها، وقد تعلَّقوا بها كلٌّ بحسب منصبه ومكانته، رغبة منهم في اختطاف أو اقتناصِ شيء من متاعها، وربما هم يرونكم مثلهم بحسب مقولةِ: "كلٌّ يرى الآخرين على ما هو عليه"،

بل وقد يُفتِّشـون عن مقاصد أخرى غير التي تنشـدونها في انفتاحِكم علـى العالم، واحتضانِكم الإنسـانيّة جمعاء بمودّة ومحبة، وسـعيِكم للتأليـف بيـن أُناس نشـؤُوا فـي بيئات ثقافيّـة مختلفـة، ولأنَّ أولئك الأشخاص يفعلون كلَّ شيء تشوُّفًا لمنفعةٍ معيّنة فقد يعتبرونكم أنتم أيضًا تركضون بهذه النشـاطاتِ وراء هـذا النوع من المنافع الدنيوية مثلهـم، بـل إنـه قد يظهر بيـن مَنْ يقفون إلـى جواركـم وتُكِنُّونَ لهم المحبـة والتقديـر أناسٌ ينخدعون بمثل تلـك الأوهام والظنون؛ فهم يُفسِّرون تصرفاتكم وأفعالكم بحسب مشاعرهم وأفكارهم الخاصة؛ فيسـتخرجون منهـا معانيَ على خلاف الحقيقـة، ويعتبرونكم مصدرَ خطرٍ بالنسبة لهم، غير أنه يجب عليكم دائمًا وفي كلِّ فرصة أن تُبيِّنوا أنكم لا تبتغون شـيئًا سـوى رضا الله تعالى، وأن تُثبتوا هذا بأفعالكمْ وتصرُّفاتكم أيضًا دون أن تُلقوا بالًا لأيٍّ من تلك الافتراءات.

إخلاصُ النية

يسـتحيل أنْ يتشـوَّف إلى أيَّة منفعـةٍ دنيويّةٍ مَـنْ يطلبون رضا الله فحسـب فيما يفعلونه، ويسـعون إلى إقامة عالم من المودّة والمحبة والتوفيق بين الناس بانفتاحهم على مختلف أنحاء العالم، ويطمحون بهـذا كلّـه إلى الفوز برضا الله تعالى؛ فهـؤلاء المُغرمون الذين يَمَّمُوا وجوههم شـطر نَيل رضا الله وعزموا وأقدموا على تغيير وجه العالم سـيكونون أبطالًا حسب نيّاتهم، وسـيحصلون على أجرها حتى وإنْ لـم تكـفِ قواهم لأن يحقّقوا بشـكلٍ كامـلٍ خططَ السـلام والمحبة التـي رسـموها؛ فـ"**الأَعْمَـالُ بِالنِّيَّـاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَـا نَوَى**"[١١٤]

(١١٤) صحيح البخاري، بدء الوحي، ١؛ صحيح مسلم، الإمارة، ١٥٥.

كما قال رسول الله ﷺ، ومن ثمَّ فإن إخلاص النية لله تعالى هو العامل والعنصر الأساس الذي سيفيد الإنسان؛ فبقدر نية الإنسان ورحابة وجدانه تكون رحمة الله تعالى ورأفته به.

فمثلًا قد تشدّون الرحال بِنِيّةِ نشر السلام في أرجاء العالم بإذن الله وعنايته، ولا تتوانون ولا تتكاسلون في الطريق الذي تسلكونه طالما سمحت الإمكانيات ولاءَمت الظروفُ وتكوَّنت البيئة المناسبة في البلادِ المُضيفةِ، بل إنكم تزيدون من سرعتكم ووتيرتكم في العمل أكثر، غير أنه قد يأتي زمان تُطلُّ فيه برأسها عقباتٌ وعراقيل تعترض طريقكم؛ فلا تتمكنون إلا من قطع عُشر الطريق الذي نويتم قطعه، فههنا سيُجازيكم الله بفضلِه على قدرِ الطريقِ كلِّه، لا على قدرِ العشرِ فقط؛ لأن نيتكم خالصةٌ وسليمةٌ تمامًا.

ولكن كي تكونوا جديرين بنَيلِ عاقبةٍ حسنة كهذه فلا بُدَّ من إخلاص النية وسلامتها من أجل تحقيق ما تستهدفونه في طريق الحق، وألا تتسلّل إليكم أيَّة أفكار تشوُّفيّة من قبيل: "تُرى أيأتي يومٌ نُكَافَأُ فيه بمنصب إداري أو بشيء آخر ولو كان بسيطًا مقابل ما أنجزناه من أعمال؟!"، بل عليكم إن خطرت ببالكم مثل تلك الخواطر أن تعتبروها همزات شيطانية؛ فتستعيذوا منها وتبتعِدوا عنها فورًا.

وهذا لا يعني ألا ينال بعضُ الأشخاص ما يستحقونه من مناصب وأعمال، فلا ريب أنَّه سيخرج من بين مَنْ يستحقون تولي مناصب معينة المديرُ والقائد والمستشار والنائب في البرلمان والوزير... إلخ، غير أنَّ مَنْ نذروا أنفسهم للخدمة في سبيل الله ولا يفكرون

في شيء سوى رضا الله تعالى كي تتنفَّسَ الإنسانية السعادةَ والرخاء؛ ينبغي لهم ألّا يتشوفوا إلى أيّ منصبٍ دنيوي حبًّا في الدنيا، بل إنه يجب عليهم ألا يستعجلوا في قبول بعض المناصب وإن جاءتهم تُهرول إليهم، وعليهم أن يُفكروا إن كان هذا سيخدم غايتهم المثالية أو لا؟ فيُقرروا بناءً على إجابة هذا السؤال القبولَ أو الرفضَ، وإلا فإنهم يُدنِّسون فكرة الرضا الإلهي الذي خرجوا في سبيل الفوز به، ويبدّدون بأيديهم ما يُرجى أنْ يقع في قلوب مخاطبيهم من تأثيرات إيجابية، ويضيّعون أرصدتهم لدى الآخرين، ويفقدون ثقة الناس بهم.

فضلًا عن طلبِ هذا النوعِ من المقامات والمناصب، فإنّ وَلَعَ من عشقوا الغايةَ المثالية السامية بفتح العالم بأسره لَيَعْنِي تراجعهم القهقَرَى بضع خطوات عن الدرجة التي هم فيها؛ ففتحُ العالم أجمع بالنسبةِ إلى تلك الغاية المثالية التي تتمثّل في إنقاذ الحياة الأبدية للناس إنّما هو كنقطة ماء بالنسبة للمحيط.

بناء عليه فإنه ينبغي للمهاجرين من أجل الوصول إلى هذه الغاية المثالية في عصرنا أن يعتبروا بزوغَ حُبِّ الحقِّ والحقيقة في القلوب وترعرعَهُ، وإنباتَ الأخلاق والفضيلة في الأرواح، وتآلفَ الناس وتعانقَهم؛ أسمى غايةٍ في حياتهم، وعليهم أن يُنظِّموا حياتهم وفقًا لتلك الغاية السامية دون أن يُضيِّعوا منها ولو ثانية واحدة.